

الأمبراطور فردريك الثانى والشرق العربى

ليس أطرف فى دراسة التاريخ من معالجة موضوع يجمع بين الشرق والغرب ؛ وفى الوقت نفسه ليس أخطر فى التاريخ من معالجة مثل هذا الموضوع لأنه يتطلب إلماماً واسعاً بالمراجع الشرقية والغربية سواء ، وقدراً كبيراً من الحرص عند مقارنة ما يرد فى المراجع الشرقية بما يرد فى المراجع الغربية ؛ وفوق هذا وذاك فإن معالجة هذا النوع من الموضوعات التاريخية يتطلب تقديراً لظروف الشرق وظروف الغرب وعقلية الشرق وعقلية الغرب وطبيعة الشرق وحضارته وطبيعة الغرب وحضارته

وتاريخ الإمبراطور فردريك الثانى مثل بارز لهذا النوع من الموضوعات ، فقد اعتلى عرش الأمبراطورية المقدسة فى النصف الأول من القرن الثالث عشر أى فى عصر ملء بالأحداث بالنسبة للغرب الأوروبى وبالنسبة للشرق العربى ثم بالنسبة للعلاقات بين الشرق والغرب . ويكفى أن نذكر ذلك العصر بالذات شهد فى غرب أوروبا دوراً من أعنف أدوار النزاع بين البابوية والأمبراطورية أو بين السلطين الدينية والعلمانية من أجل سيادة العالم (١) ؛ وشهد فى الشرق العربى التطورات السريعة التى أملت بمصر والشام عقب وفاة صلاح الدين ؛ كما شهد الاتصال القوى الشديد بين الشرق والغرب وهو الاتصال الذى اتخذ طابعاً حربياً عنيفاً فى صورة الحروب الصليبية مثلما اتخذ طابعاً فكرياً سلمياً فى صورة ازدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب فضلاً عن إقبال الغرب الأوروبى على علوم العرب وحضارتهم وامتصاص كل ما أمكن امتصاصه من رحيق الفكر العربى والحضارة العربية عن طريق الترجمة والنقل والمحاكاة .

(١) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٩٨ — ٤٠٩ .

وفى جميع تلك الأوجه المتباينة من النشاط البشرى الذى ساد الغرب والشرق جميعاً فى القرن الثالث عشر، أسهم الإمبراطور فردريك الثانى بسهم وافر ملحوظ، زاد من وقعه وأثره شخصية ذلك الإمبراطور ونشاطه الفكرى وغير الفكرى، مما جعل جمهرة الكتّاب والمؤرخين يجمعون على تلقيبه بلقب واحد مشترك هو Stupor Mundi أعجوبة الدنيا^(١)، والحق أن فردريك الثانى كان أعجوبة فعلاً فى تصرفاته وسلوكه، أعجوبة فى آرائه وأفكاره. وربما كانت مظاهر العجب فى ذلك الإمبراطور لا تبدو أشد وضوحاً وجلياً منها فى علاقته بالعرب والمسلمين، ولا أقل من أن نلقى نظرة سريعة على الظروف التى أحاطت بذلك الإمبراطور فى الغرب الأوروبى لنستطيع فى ضوءها أن نفرس تصرفاته إزاء العرب والحضارة العربية.

ولد فردريك الثانى من أب ألمانى هو هنرى السادس وأم إيطالية هى الأميرة كونستانس وريثه صقلية، ونشأ وتربى وتعلم فى صقلية، وهى الجزيرة التى كانت فى العصور الوسطى بحكم موقعها وتاريخها ملتقى الحضارات العربية الإسلامية والبيزنطية اليونانية والرومانية اللاتينية، فنشأ فيلسوفاً محباً للجدل والرياضيات، يجيد ست لغات منها اللغة العربية، ويتذوق الشعر العربى وغير العربى، هذا كله فضلاً عن مهارته فى السياسة والقانون والعلوم الطبيعية^(٢). وقد أفاض جمهرة المؤرخين — العرب والأوربيين سواء — فى وصف حب فردريك للمسلمين وإعجابه بحضارتهم وعلومهم وحياتهم وتقريبه لهم، واستخدامهم فى حاشيته حتى أن المؤذنين المسلمين كانوا يؤذنون عند موعد كل فرض فى معسكره. وذكر المقرئ أن فردريك كان « عالماً متجرباً فى علم الهندسة والحساب والرياضيات »، وأنه بعث من صقلية للسلطان الكامل الأيوبى بعدة مسائل مشكلة فى الهندسة

Bryce : The Holy Roman Empire, pp. 203-204.

(١)

Kantorowicz : Frederik the Second, pp. 293-295.

(٢)

والحكمة والرياضة ، فعرضها السلطان على الشيخ علم الدين قيصر المنفى — المعروف باسم تعاسيف — وأرسل جوابها إلى الإمبراطور (١) .

ولكن إذا كان فردريك الثانى قد نشأ تلك النشأة الغربية التى ليس لها مثيل فيمن سبقه أو تبعه من أباطرة الدولة الرومانية المقدسة ؛ فإن هناك وجهاً للشبه بينه وبين أسلافه من أباطرة تلك الإمبراطورية فى الغرب ؛ وأعنى بذلك التشابه اشتراك فردريك الثانى فى معركة الصراع بين البابوية والإمبراطورية بل إنه الإمبراطور الذى اختتم قصة النزاع مع البابوية وأسهم فى آخر حلقاتها فى المصور الوسطى . حقيقة إن البابوية ساعدت فردريك الثانى فى الحصول على حقه فى عرش الإمبراطورية وأيدته حتى تم له القضاء على خصمه ومنافسه أوتو الرابع سنة ١٢١٤ وتوجته إمبراطوراً سنة ١٢٢٠ فى روما (٢) . ولسكن الإمبراطور الجديد فردريك الثانى سرعان مانسى كل ذلك ولم يعد يذكر إلا شيئاً واحداً هو أنه خليفة قيصر وأوغسطس وشارلمان وأنه بنأى على ذلك يعتبر الزعيم الأوحد للعالم بوصفه ممثلاً للسلطة الإمبراطورية العليا ، وأن الكنيسة ورجالها وعلى رأسهم البابا يجب أن يمتروا له بالسمو والزعامة . وهكذا لم يكتف الإمبراطور فردريك الثانى بتوطيد مركزه فى صقلية وجنوب إيطاليا بل أخذ يعمل على تأكيد سلطانه على المدن اللباردية فى شمال إيطاليا مما هدد بوقوع الأملاك البابوية بين شقى الرعى وجعل البابا ينظر إلى سياسة فردريك الثانى بعين ملؤها الشك والخوف مما سيتمخض عنه المستقبل (١) .

وكان ذلك سنة ١٢١٥ عند تتويجه بمدينة أكس عندما وعد فردريك — لأول مرة — بالقيام على رأس حملة صليبية إلى الشرق ثمناً للمساعدة التى لقيها من البابوية فى الوصول إلى حكم الإمبراطورية وفى سنة ١٢٢٠ جدد

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٣٢ .

(٢) Barraclough : The Origins of Modern Germany, p. 214 & Tout : The Empire and the Papacy, pp. 364-365.

الأمبراطور وعده الصليبي عند تنويجه أمبراطوراً بمدينة روما ، ولكن السنوات أخذت تمر والأعوام تتوالى دون أن يقوم الإمبراطور بحملته المزعومة ، في وقت كانت البابوية تتوق إلى إرسال حملة صليبية قوية لتحقيق ما أخفقت في تحقيقه الحملات الصليبية السابقة (٢) . على أن مما طلة الأمبراطور فردريك الثاني في الخروج لمحاربة المسلمين أمر يسترعى الانتباه ولا يسعنا تفسيره إلا في ضوء تخوف الأمبراطور من أن يترك الغرب من ناحية وحرصه على ألا يدخل في حرب ضد المسلمين من ناحية أخرى . أما عن الجانب الأول فإنه لا يخفى علينا أنه كان من المجازفة بالنسبة لفردريك أن يترك أمبراطوريته المقدسة في ألمانيا وإيطاليا وصقلية في الوقت الذي اشتدت سطوة كبار أمراء الإقطاع في ألمانيا وتألبت المدن العباردية ضد الإمبراطور في شمال إيطاليا ؛ وتربصت البابوية للأمبراطور وأرادت أن تحمل به السكوارث في ألمانيا وإيطاليا جميعاً (٣) .

وأما بالنسبة لعدم رغبة فردريك الثاني في الدخول في حرب ضد المسلمين فهذا أمر ثابت لا يستبعد على إمبراطور عرف بالتسامح الديني الشديد في عصر طفق بروح التعصب الديني ؛ وعرف بحبه للمسلمين بل للإسلام ، زمن اشتدت كراهية الغرب الأوربي للعروبة والإسلام . وقد أفاض جهمرة المؤرخين العرب والأوربيين في وصف حب فردريك الثاني للمسلمين وحضارتهم ، بعدما لمسوه من تصرفاته وأقواله . فالقاضي جمال الدين بن واصل يقول عن فردريك الثاني « وكان مايلًا إلى المسلمين لأن مقامه في الأصل ومرباه بلاد صقلية . . . وأهل الجزيرة غالبهم المسلمين » (٤) . ثم إن أفعال الإمبراطور نفسه عندما حضر إلى الشام كانت خير دليل على شعوره تجاه الإسلام والمسلمين . من ذلك أن فردريك

Banaclough : op.cit., pp. 222-228.

(١)

Cam. Med. Hist. vol., 6, pp. 144-146.

(٢)

(٣) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٢٥٢ ب (مخطوط) سنة ٦٢٥ هـ .

حرص أثناء وجوده في بيت المقدس على زيارة المسجد الأقصى، وهناك أطلال البقاء حتى يحل موعد الصلاة ويسمع آذان المسلمين، ولكنه لم يسمع شيئاً. ولما استفسر عن السبب في ذلك قيل له أن السلطان الكامل أصدر أوامره إلى المؤذنين في بيت المقدس بعدم إقامة الأذان طيلة وجود الأمبراطور بالمدينة، وذلك « إعظاماً للملك واحتراماً له ». وعندئذ استاء فردريك والتفت إلى مرافقه شمس الدين قاضى نابلسى وقال له « أخطأت فيما فعلت ؛ والله إنه كان أكبر غرضى في البيت بالقدس أن أسمع آذان المسلمين ونسبيهم في الليل ! » (١).

وهنا يصح أن أضيف سبباً آخر دفع فردريك الثانى إلى التقرب من المسلمين والإسلام، هو كرهه للبابوية والكنيسة الغربية، تلك الكنيسة التي ناصبت آباءه وأسلافه العداء والتي كرسَتْ جهودها لسحق الإمبراطورية وسلطانها في الغرب. وقد ظهر هذا الشعور أيضاً أثناء وجود فردريك الثانى في الشام، إذ يروى ابن واصل أنه سأل الأمير فخر الدين عن الخلافة الإسلامية وحقيقة مركز الخليفة عند المسلمين، فأجاب الشيخ فخر الدين بأن الخليفة ينحدر من نسل العباس عم الرسول وأنه بناءً على ذلك يمت إلى الرسول بصلة القرى، مما يخوله حقاً شرعياً في حكم المسلمين. وعندئذ أجاب فردريك بأن هذا هو المنطق السليم، لا مثل البابا الدجال الذى لا تربطه أية رابطة بالمسيح ومع ذلك يدعى الحق في حكم المسيحيين. وقد دفع هذا السلوك مؤرخاً مثل العيني إلى القول عن فردريك « الظاهر من كلامه أنه كان دهرياً وإنما كان يتلاعب بالنصرانية » (٢).

وهكذا لا يستبعد أن تكون كراهية فردريك الثانى للبابوية والكنيسة الغربية هي التي دفعته إلى حب الإسلام والمسلمين، وقد قال بهذا رأى فولتير ومنسكيو (٣).

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٣١ سنة ٦٢٦ هـ.

(٢) العيني : عقد الجان ؛ حوادث سنة ٦٢٦ هـ.

(٣) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 280.

على أنه إذا كان فردريك الثانى قد أخذ يماطل البابوية طويلا فى تحقيق وعده الصليبي ؛ فإنه لم يستطع أن يستمر حتى النهاية فى تلك المماطلة لا سيما بعد أن استجدت ظروف فى الغرب والشرق شجعت الإمبراطور إلى اتخاذ تلك الخطوة على كره منه . أما فى الغرب فقد سعى البابا هنريوس الثالث إلى إتمام زواج فردريك الثانى من الأميرة يولاند ابنة حنا برين وهى وريثة مملكة بيت المقدس . وكان أن تزوج فردريك فعلا من تلك الأميرة سنة ١٢٢٥ وبذلك ظهر دافع جديد يجعل الإمبراطور يفسكر فى الذهاب إلى الشام ليتزوج مع زوجته بتاج مملكة بيت المقدس . ويقال إن الإمبراطور أعلن للمرة الثالثة عند زواجه عزمه على القيام بمشروعه الصليبي ، بل حدد سنة ١٢٢٧ لتنفيذ ذلك المشروع (١) .

وثمة سبب قوى شجع الإمبراطور فردريك الثانى على الخروج إلى الشرق هو أن الكامل الأيوبي صاحب مصر أرسل يستعين به ضد الأخطار التى واجهته من ناحية أخيه المعظم ثم من ناحية الخوارزمية الذين هددوا الجبهة الشرقية للدولة الأيوبية . ذلك أن الاتحاد الذى قام بين أبناء العادل الأيوبي الثلاثة — وهم الكامل صاحب مصر والمعظم صاحب دمشق والأشرف صاحب الجزيرة وخلاط — هذا الاتحاد لم يلبث أن انفرط عقده فى نهاية سنة ١٢٢٣ بعد أن تم التغلب على الحملة الصليبية الخامسة وطرد الصليبيين من مصر (٢) . ولم يلبث جشع المعظم عيسى صاحب دمشق أن أدى إلى إثارة العداء بينه من جهة وبين أخوية الكامل والأشرف من جهة أخرى ، فى الوقت الذى تحرك الخوارزمية على أطراف الجزيرة ، مما جعل الأشرف يتنامى الخلاف مع أخيه المعظم ويهرع إليه فى دمشق طالبا للعمل بسرعة على توحيد جبهة البيت الأيوبي ضد ذلك الخطر الجديد . ولكل المعظم استغل الفرصة التى أتاحت له قبض على أخيه

Kantorowicz : op.cit., p. 139.

(١)

(٢) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٢٣ .

الأشرف في دمشق ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تعهد له بمساعدته في مهاجمة أخيهما الثالث وهو الكامل في مصر . وقد تعهد الأشرف بكل ذلك ولكنه ما كاد يغلت من يد المعظم حتى فر إلى أخيه الكامل وأكّد تحالفه معه ضد المعظم ، وبذلك وضع الأخوان خطة للتخلص من أخيهما المعظم (١) .

على أن وجه الخطورة في النزاع الذي نشب عندئذ بين أبناء العادل هو أن الفريقين المتنازعين استعانوا بقوى خارجية فاستنجد الملك المعظم بالخوارزمية في حين استنجد الملك الكامل بالإمبراطور فردريك الثاني . وقد أسرع جلال الدين منكبرتي سلطان الخوارزمية بتلبية نداء المعظم فأرسل إليه « خلعه لبسها وشق بها دمشق وقطع الخطبة للملك الكامل » (٢) . أما الكامل في مصر فقد أرسل إلى الإمبراطور فردريك الثاني في صقلية مبعوثاً خاصاً هو الأمير فخر الدين يوسف بن حمويه ليطلب من الإمبراطور « أن يحضر إلى الشام والساحل ويعطيه البيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل » (٣) . وقد أحسن الإمبراطور فردريك الثاني استقبال الأمير فخر الدين مبعوث الملك الكامل ؛ ومن ذلك الوقت نشأت صلة صداقة وطيدة بين فردريك الثاني من ناحية والأمير فخر الدين من ناحية أخرى ، إذ يبدو أن كلاهما أعجب بشخصية الآخر وأخلص له . ثم إن فردريك لم يكتف بأن وعد مبعوث الكامل بالحضور ومساعدته ، بل رد عليه بارسال سفارة ماثلة إلى مصر معها « هدية سنوية وتحف غريبة » فتلقى الكامل رسول الإمبراطور وهديته بالسرور البالغ « وإكرمه إكراماً زائداً » كما اهتم الكامل بإعداد هدية فاخرة للإمبراطور « فيها من تحف الهند واليمن والعراق والشام ومصر والعجم » (٤) . وجدير بالذكر أن هذه السفارة الإمبراطورية

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) العيني : عقد الجمان سنة ٦٢٤ هـ & المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٢١-٢٢٢ .

(٣) (2) Wielt : L'Egypte Arabe, pp. 350-351.

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٢٢ .

اختارت أن تمر في طريق عودتها إلى الغرب بمدينة دمشق لتطلب من المعظم تسليم بيت المقدس للإمبراطور؛ ولكن المعظم أساء مقابلة مبعوث الإمبراطور « وأغلظ له وقال : قل لصاحبك (فردريك) ما أنا مثل الغير (الكامل) وماله عندي سوى السيف » (١) .

هذا هو الموقف في الشرق العربي في الوقت الذي أخذت البابوية تضغط على فردريك الثاني للقيام بحملته الصليبية ، وله ينجح في إصلاح الموقف الناجم عن فشل حملة حنا برين على مصر وهي الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٩ — ١٢٢١) . وإذا كان البابا هنريوس الثالث قد توفي سنة ١٢٢٧ فإن خليفته جريجورى التاسع امتاز بإرادة حديدية رغم تقدم سنه ، فأبى قبول الأعذار التي طالما انتحلها فردريك الثاني لتأجيل حملته الصليبية وأصر على ضرورة رحيل الإمبراطور فوراً إلى الشرق (٢) . وكان أن أبحر الإمبراطور فعلا من برنديزى قاصداً بلاد الشام ، ولكنه عاد بعد أيام مدعياً المرض ، مما جعل البابا يعتبر المرض تمارضاً ، فأصدر قرار الحرمان ضد الإمبراطور في أواخر سبتمبر سنة ١٢٢٧ .

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أن توقيع قرار الحرمان على الإمبراطور لم يكن سببه ملاحظة فردريك الثاني في الوفاء بعهده الصليبي فحسب ، بل أيضاً تخوف البابوية من سياسة ذلك الإمبراطور في إيطاليا بوجه عام وتجاه البابوية بوجه خاص (٣) . ومهما كان الأمر فإن هذا الإجراء فتح باب النزاع على مصراعيه من جديد بين البابوية والإمبراطورية . ويبدو أن البابا جريجورى التاسع كان عنيفاً في هجومه على الإمبراطور ، الأمر الذي اضطر فردريك الثاني إلى الخروج قاصداً الشرق في صيف سنة ١٢٢٨ على رأس قوة صغيرة من رجاله ، بعد أن انفض عنه كثيرون نتيجة لقرار الحرمان الصادر ضده (٤) .

(١) العوفى : عقد الجمان سنة ٦٢٤ هـ .

(2) Cam. Med. Hist. vol. 6, p. 164.

Creighton : A Hist. of the Papacy, p. 26.

Archer : The Crusades, p. 381 & Setton : A Hist. of the Crusades,

vol. 2, p. 451.

(٢)

(٣)

(٤)

وهكذا شامت الظروف أن تكون الحملة الصليبية السادسة التي تزعمها الإمبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٢٨ هـ أغرب الحملات وأشدّها طرافة في تاريخ الحركة الصليبية فإذا كانت الحملات الصليبية السابقة واللاحقة قد تزعمها ملوك وأمراء ينعمون بدعاء البابوية وعطف الكنيسة حتى استمد أولئك الزعماء الصليبيون نفوذهم من ذلك العطف والرضاء ، فإن الحملة الصليبية السادسة خرجت إلى الشرق وعلى رأسها إمبراطور ملعون من البابوية مطرود من رحمة الكنيسة منبوذ من المجتمع المسيحي . وإذا كان زعماء الحملات الصليبية قد حرصوا عند خروجهم من الغرب على حشد الجيوش وجمع الجوع الفقيرة استعداداً لمنازلة المسلمين في الشرق ، فإن الإمبراطور فردريك الثانى لم يصطحب معه عند مغادرته الغرب سوى خمسمائة أو ستائة فارس وهى قوة لا تكفى للصمود في معركة محلية صغيرة ضد المسلمين في الشام . وإذا كانت الحملات الصليبية قد أتت إلى الشرق وهى تفيض بروح الكراهية والتعصب ضد المسلمين والرغبة في التآمر والانتقام منهم ، فإن حملة فردريك الثانى امتازت بمسحة فريدة من التسامح الدينى ، بل شعور الود والمجاملة تجاه المسلمين .

وتدل جميع الشواهد على أن فردريك الثانى أتى إلى الشام ليقاوض لا ليحارب ، معتمداً على وعود السلطان الكامل له وهى الوعود التى نصت على تسليم بيت المقدس للإمبراطور مقابل قيام الأخير « بشغل سر أخيه المعظم ^(١) » . وهنا نلاحظ أن فردريك الثانى لم يعتمد على وعود الكامل وحده ، وإنما يبدو أنه قام قبل مغادرة الغرب باتصالات واسعة مع غير الكامل من أمراء البيت الأيوبي بالشام بغية إعداد الجواللحصول على بيت المقدس دون عناء . وخير شاهد على ذلك تلك الرسالة التى أوردها القلقشندى وهى عبارة عن خطاب أرسله الملك الجواد أحمد أمراء بنى أيوب بالشام إلى الإمبراطور فردريك الثانى رداً

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

على رسالة كان فردريك قد بعث بها إلى ذلك الملك الأيوبي . وتهمنا الفقرة الأخيرة من رسالة الملك الجواد الأيوبي والتي يقول فيها « وأما ما ذكره المقام العالى السلطانى السكاملى الناصرى ... من أنه لا فرق بين المملكتين ، فهذا هو المعتقد فى صدق عهده وخالص وده (١) » ... ومن هذا نخرج بنتيجتين هامتين أولاهما أن مراسلات فردريك الثانى قبل قيامه بحملته الصليبية لم تقتصر على السكامل وحده وإنما امتدت إلى غيره من ملوك بنى أيوب والنتيجة الثانية هى أن تلك المراسلات حفلت بروح الود والأخاء هى أن السكامل أرسل إلى فردريك يخبره بأنه لا فرق بين المملكتين .

على أن فردريك الثانى لم يكبد يصل إلى عكا فى سبتمبر سنة ١٢٢٨ حتى وجد الموقف فى بلاد الشام غير ما كان ينتظر . ذلك أن البابا - المرة الأولى والأخيرة فى تاريخ البابوية والحروب الصليبية - أخذ يرسل الرسل إلى ملوك بنى أيوب بوجه عام والسلطان السكامل بوجه خاص محرضاً إيهم على عدم تسليم بيت المقدس للإمبراطور . ولا عجب فى هذا الموقف الغريب الذى اتخذته البابوية ، إذ كانت المعركة بينها وبين الإمبراطورية أهم فى نظرها من المعركة القائمة بين المسلمين والصليبيين فى الشام . وكان البابا جريجورى التاسع يعلم جيداً أنه إذا قدر لفردريك الانتصار فى مهمته واسترداد بيت المقدس من المسلمين فإن ذلك سيكون فى نظر المعاصرين بمثابة حكم الله للإمبراطور المحروم ، وفى هذا فصل الخطاب بين فردريك وجريجورى أو بين البابوية والإمبراطورية .

ثم إنه إذا كان فردريك الثانى قد أتى إلى الشام بعد أن وضع كل أمله فى وعود السلطان السكامل بتسليم بيت المقدس ، فإن هذا الأمل انهيار فجأة لتغير سياسة السكامل . ذلك أن للعظم صاحب دمشق الذى كانت أطماعه

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ١١٧ - ١١٨ .

هى السبب فى استنجد الكامل بفرديك ، كان قد توفى فى أواخر سنة ١٢٢٧ تاركاً ابنه الناصر داود وهو شاب صغير فى العشرين من عمره عديم الخبرة محباً للهو؛ مما مكن الكامل والأشرف من اقتسام أملاك أخيهما للعظم وإعطاء الناصر داود الكرك والشوبك وغيرها من الجهات الثانوية^(١). وما دام الوضع قد استقر بين أبناء البيت الأيوبي على ذلك فإن السلطان الكامل لم يعد فى حاجة إلى فرديك ومعونته . ويصور لنا المؤرخون العرب حيرة السلطان الكامل فى ذلك الموقف لأن فرديك الثانى لم يحضر إلى الشام إلا بناءً على طلب السلطان؛ وفى ذلك يقول ابن واصل والمقريزى « تحير الملك الكامل ، ولم يمكنه دفعه ولا محاربته لما كان تقدم بينهما من الاتفاق ، فراسله ولاطفه^(٢) . ويبدو أن الكامل أحس بأنه ليس من مصلحته ولا مصلحة البيت الأيوبي أنه يصطدم بالصلبيين بالشام فى تلك المرحلة التى تعرضت بلاد العراق والشام ومصر لتهديد الخوارزمية ومن ورائهم المغول؛ وهذا هو السر فى ملاطفته للإمبراطور فرديك . وفى الوقت نفسه أحس الكامل أن أى تساهل مع الصليبيين أو تقرب فى حقوق المسلمين سيثير ضده رأى العام فى البلدان الإسلامية ، وبخاصة دمشق التى كانت أكثر إحساساً بخطر الصليبيين من غيرها^(٣) .

وهكذا ساء موقف فرديك الثانى فى الشرق ، وتذكر أنه خرج من بلاده محروماً من الكنيسة مغضوباً عليه من البابوية ، وأنه اعتمد على وعد الكامل له بإعطائه بيت المقدس فى إصلاح مركزه فى الغرب الأوروبى . ولو كان فرديك يعلم أن الكامل سينكث بوعده لما خرج إلى الشرق أصلاً ، أو لأستعد استعداداً جدياً لحرب المسلمين وجلب معه جيشاً كبيراً عند خروجه إلى الشرق .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢٦ & ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٦٢٥ هـ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٢٥٢ & المقريزى : السلوك ج ص ٢٢٩ .

Grousset. III, p. 300.

(٣)

ولكن بعد أن جرت الأمور على ذلك الوضع ماذا يفعل فردريك بالتخمسائة فارس الذين أحضرهم معه ؟ إنه لا يستطيع الاعتماد تماماً على تعاون الصليبيين معه في بلاد الشام ، لأن أى مسيحى مخلص كان يأبى أن يتعاون مع رجل محروم من الكنيسة مطرود من رحمتها حتى ولو كان هذا الرجل أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وإذا هو رجع فاشلاً إلى الغرب ماذا سيكون موقفه بعد أن أعطى البابوية سلاحاً جديداً للتشهير به والإقلال من شأنه ؟ إن المسألة بالنسبة لفردريك الثانى كانت تعنى مستقبل عرشه في الغرب الأوروبى ومستقبل معركته ضد البابوية ، لأن نجاحه فى استرداد بيت المقدس سيكون قبل كل شئ انتصاراً له على البابوية . ويفسر هذا الشعور ما قاله فردريك نفسه فى تلك المرحلة لصديقه الأمير فخر الدين من أنه « ماله غرض فى القدس ولا غيره ، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج » (١) .

وهكذا لم يبق أمام فردريك الثانى سوى سلاح واحد هو سلاح المفاوضات والاستعطاف واستخدام كل الوسائل الدبلوماسية للوصول إلى غرضه والعودة إلى الغرب الأوروبى موضوع الرأس .

لذلك أسرع فردريك الثانى إلى إرسال سفارة من رسولين إلى السلطان الكامل تحمل له هدايا نفيسة من منسوجات حريرية وأوان ذهبية وفضية ، وتطالبه بتحقيق وعده وتسليم بيت المقدس . غير أن الكامل أعلنها فى صراحة أنه كان سيعطى بيت المقدس للأمبراطور ثمناً للمساعدة التى يقدمها له الأمبراطور ضد أخيه المعظم ، أما وقد تبدلت الظروف ومات المعظم واستغنى الكامل عن المساعدة ، فلا داعى للتفریط فى بيت المقدس . ولم تفلح جهود الأمير فخر الدين يوسف مندوب السلطان فى المفاوضات بين الطرفين فى الوصول إلى حل يرضى

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

الإمبراطور والسلطان ، فساء موقف فردريك الثانى لاسيما بعد أن جاءته الأخبار من إيطاليا بأن البابا استغل فرصة غيابه واعتدى على ممتلكاته كما أشاع في الغرب بأن الإمبراطور مات في الشام وأنه لا يوجد من يحسن الوصاية على ابن الإمبراطور القاصر سوى البابا نفسه . ولعل هذه الأخبار كانت كافية لدفع فردريك الثانى وهو الإمبراطور العظيم إلى التذلل للسلطان الكامل حتى حكى أنه كان يبكي بكاءً مرأً في مراحل المفاوضات (١) .

ولا أدل على هذا الشعور من رسالة أرسلها الإمبراطور فردريك إلى السلطان الكامل أثناء المفاوضات ، ومع ما لهذه الرسالة من أهمية فإن مرجعاً واحداً من المراجع الأوروبية أو العربية التي عالجت تاريخ فردريك الثانى لم يشر إليها . وقد جاء في هذه الرسالة على لسان الإمبراطور موجهاً خطابه للسلطان « أنا مملوكك وعتيقتك وليس لى عما تأمره خروج وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر . وقد علم البابا والملوك باهتنامى وطلوعى ، فإن رجعت خائياً انكسرت حرمتى بينهم ! وهذا القدس فهى أصل اعتقادهم وضجرهم . فإن رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقه منه ! ويرتفع رأسى بين ملوك البحر » (٢) .

ولم تلبث هذه الاستعطافات أن نجحت في التأثير على السلطان الكامل للتنازل عن بيت المقدس لفردريك . ويبدو أن ما قام به الإمبراطور فردريك أثناء المفاوضات من تحصين يافا جاء بمثابة مظاهرة عسكرية جعلت الكامل يخشى اتفاق الإمبراطور وبقية الصليبيين بالشام للقيام بعمل حربى مشترك ضد المسلمين . وقد فسر المقرئى هذا الشعور بقوله إن الكامل « خاف من غائلته عجزاً عن مقاومته » (١) .

Kantorowicz: Fredrick the Second, p. 185.

(١)

(٢) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ١٤ (ذيل الباب الثانى والسبعين من كتاب الوافى بالوفيات) .

(٣) السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

ولا شك في أن المغامرة في حرب ضد الإمبراطور والصلبيين عندئذ كانت تعنى بالنسبة للكمال وقوعه بين ثلاثة أعداءهم : ابن أخيه الناصر داود من ناحية والصلبيين من ناحية ثانية ثم الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكبرتي — الذى استنجد به الناصر داود من ناحية ثالثة . وفى ضوء هذه الحقائق كلها وافق الكمال — تحت تأثير الأمير فخر الدين يوسف — على عقد اتفاقية يافا مع الإمبراطور فردريك الثانى فى فبراير سنة ١٢٢٩ . وبمقتضى هذه الإتفاقية تقرر الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات، على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرية وتبنين وصيدا . وبخصوص بيت المقدس اشترط المسلمون أن تبقى المدينة على ما هى عليه فلا يحدد سورها ، وأن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين وتقام فيه شعائر الإسلام (١) .

وهكذا استطاع فردريك الثانى مع ضعف وسائله وإمكاناته أن يحقق من النتائج ما عجز عنه ريتشارد قلب الأسد بجيوشه الضخمة وإمكاناته الكبيرة، مع ملاحظة أن فردريك حصل على بيت المقدس دون أن يدخل معركة أو يخسر رجلاً واحداً . على أن اتفاقية يافا قوبلت بالسخط الشديد من المسلمين والمسيحيين جميعاً . فمن ناحية المسلمين نجد أن تسليم بيت المقدس على ذلك النحو للصلبيين ، وهى المدينة التى استردها صلاح الدين للمسلمين بعد جهاد عنيف ، أثار موجة عامة من السخط والأسى فى العالم الإسلامى . وقد أسهب المؤرخون العرب فى وصف ألم المسلمين لضياح بيت المقدس وكيف أقيمت المآتم والجنائزات فى المدن الكبرى مثل دمشق واشتد بكاء الناس وصريحهم ، كما « اشتد الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه فى سائر الأقطار » (٢) . وسرعان ما أحس السلطان الكامل أنه « تورط مع ملك الفرنج » على قول المقرئى ، فحاول أن يهون

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦٢٦ هـ & المقرئى : السلوك ج ١

ص ٢٣١ & الع : عقد الجمان سنة ٦٢٦ هـ & أبو الفدا المختصر سنة ٦٢٦ هـ .

من أمر تسليم بيت المقدس للصليبيين ويبرر مساسكه فقال « إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدر خراب والمسجد على حاله ، وشعار الإسلام قائم ، ووالى المسلمين متحكم فى الأعمال والضياع » ! . أما الإمبراطور فردريك فقد أحس من جانبه بما سببه من حرج للسلطان الكامل فاعتذر للأمير فخر الدين « بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئاً من ذلك (١) » .

ولم يكن المسلمون وحدهم هم الذين أظهروا استياءهم من هذه الإنفاقية ، بل غضب الصليبيون أيضاً فى الشام وفسروا غضبهم بصور شتى . فبعضهم قال إن كرامة المسيحية كانت تتطلب أخذ بيت المقدس بحد السيف لا عن طريق الاستجداء والاستعطاف مثلاً فعل فردريك الثانى ! لا سيما وأنه ترتب على حصول الصليبيين على القدس بالطرق السلمية أن المسلمين احتفظوا بكثير من حقوقهم فيها واستبقوا لأنفسهم المسجد الأقصى وقبة الصخرة وهو ما لا يجب أن يكون ! (٢) والبعض الآخر قال بأنه لا قيمة لحصول المسيحيين على بيت المقدس بدون الأردن والكرك ، وأنه لو أن المسيحيين رأوا أن هذا الحل مقنعاً لرضوا به عندما عرضه الكامل على الصليبيين فى مصر أيام الحملة الصليبية الخامسة ، ولكنهم رفضوه عندئذ لأنهم أدركوا أنه لا بد من إحياء مملكة بيت المقدس كاملة بما فيها أراضى الأردن (٣) . أما الداوية والاستبارية فقالوا أنه لا قيمة لأى عمل أو نجاح يحققه الأمبراطور ، ما دام ذلك الإمبراطور محروماً من الكنيسة مطروداً من رحمتها ، هذا فضلاً عن غضب الداوية لأن الإمبراطور سمح للمسلمين بالاحتفاظ بالمسجد الأقصى الذى كان مركزاً للداوية فى القدس حتى عام ١١٨٧ (٤) .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

Stevenson : The Crusades, p. 313.

(٢)

Runciman : A History of the Crusades, III, p. 188.

(٣)

Setton : op.cit., II, pp. 426-427,

(٤)

وعندما علم جبرولد بطرق بيت المقدس أن الإمبراطور فردريك الثانى ينوى زيارة المدينة ، وقع قرار الحرمان على القدس نفسها وعلى كل من يستقبل الإمبراطور فيها من سكانها المسيحيين . ومع ذلك فقد شق الإمبراطور طريقه إلى بيت المقدس ليتسلمها من مندوب السلطان ، وعندما رفض أحد من رجال الكنيسة أن يتوج الإمبراطور فى كنيسة القيامة لأنه محروم ؛ أمسك فردريك الثانى التاج بيده ووضعته على رأسه . ويرى بعض المؤرخين أن فردريك الثانى قصد أن يتوج نفسه بيده فى كنيسة القيامة ، ليعلم فى ذلك المكان العالمى أنه لم يتسلق التاج الإمبراطورى عن طريق أحد من رجال الدين ، وأن الإمبراطور يتسلم سلطانه من الله مباشرة دون وساطة مخلوق^(١) . وهذا تفسير له دلالة فى قصة النزاع بين البابوية والإمبراطورية . وجدير بالذكر أن الإمبراطور فردريك الثانى قام بكثير من الأعمال والتصرفات أثناء إقامته ببيت المقدس التى أثارت دهشة المسلمين والمسيحيين سواء . من ذلك أن فردريك الثانى رأى قسيساً بيده الإنجيل يهيم بدخول المسجد الأقصى ، فزجره الإمبراطور وطرده وهدد كل من يدخل المسجد الأقصى من الفرنج بغير إذن وقال « إنما نحن ممالك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده ، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه ، فلا يتعدى أحد منكم طوره ! »^(٢) .

ومهما يكن من أمر فإن إقامة الإمبراطور فردريك الثانى لم تطل فى بلاد الشام ، لأن مصالحه فى الغرب كانت أهم بكثير فى نظره من مصالح الصليبيين فى الشرق . لذلك أبحر فردريك الثانى من عكا فى أول مايو عام ١٢٢٩ قاصداً قبرص حيث قضى عدة أيام ثم بارحها إلى إيطاليا فوصلها فى ١٠ يونيو عام ١٢٢٩ . وبذلك انتهت تلك الحملة الصليبية التى انصفت بالغرابة من بدايتها حتى نهايتها . ومهما

Kantorowicz : Frederick the Second, p. 199.

(١)

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٣١ .

يقال في أمر فردريك وتصرفاته فإنه لا يمكن إنكار الكسب الكبير الذى حققته المسيحية باسترداده بيت المقدس . وهنا نشير إلى نقطة لم تهتم بها المراجع التى عالجت تاريخ فردريك الثانى وحملته الصليبية ، هى أنه ما كان لذلك الإمبراطور أن يصل إلى ما وصل إليه من نجاح فى حملته الصليبية لولا أن الظروف شاءت أن يكون على رأس البيت الأيوبى فى مصر والشام عندئذ سلطان اتفق مع فردريك الثانى فى طباعه وكثير من صفاته . فإذا كانت المراجع قد أجمعت على حب فردريك للعلم والعلماء ، وعلى حرصه على مجالسة رجال العلم واشتغاله بالرياضيات والحكمة فإن ابن واصل والمقريزى يذكران عن السلطان الكامل أنه « كان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم ... وكان يناظر العلماء وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها فمن أجاب عنها قدمه وحظى عنده ... وكانت تبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم ... فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريريه ليسامروه » (١) . وإذا كانت المراجع قد أسهبت فى وصف تسامح فردريك الثانى وعدم تعصبة ، فإن الكامل أيضاً اشتهر بتسامحه المطلق وبعده عن التزمت ؛ وهو التسامح الذى بلغ حد التفريط فى بيت المقدس وإصدار الأوامر المشددة إلى المؤذنين فى المسجد الأقصى بعدم إحياء أذان الصلاة طيلة مدة بقاء الإمبراطور فى المدينة حرصاً على شعوره (٢) .

وهكذا نستطيع أن نقرر أنه لولا التوافق الشديد بين الكامل وفردريك فى الطباع والميول والمقابلة لتعذر على الإمبراطور فردريك الثانى أن يصل إلى ما وصل إليه من نتائج بتلك السهولة .

وخير ما يثبت أن العلاقة بين الكامل وفردريك لم تعد علاقة مصالح متبادلة ، وإنما أدى التقارب النفسى والفكرى بين الرجلين إلى نوع من الصداقة ، أن

(١) ابن واصل ج ٢ ورقة ٢٢٦ & المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٢) العيني : عقد الجمان ؛ ج ١٨ قسم ١ ص ٨٢ - ٨٣ .

العلاقات بينهما لم تتوقف برحيل فردريك إلى الغرب ، وإنما تمسك كل منهما بصداقة الآخر وظلا حتى النهاية خير مثال للصديقين الوفيين . ويقال إن فردريك بعد عودته إلى الغرب كان لا يفتأ يردد أمام أصدقائه « إن صديقي السلطان المسلم آمن لدى من أى شخص آخر ما عدا ولدى الملك كونراد » كذلك كان من ألقابه التى اعتز بها دائماً « فردريك هو هشتافن صديق الملك المسلم » . ويقال إنه فى أخريات أيام حياته كان كلما وقع فى ضيق يتنهد قائلاً « آه لو كان صديقي الكامل على قيد الحياة ! » (٢) .

ثم إن هذه الصداقة بين فردريك والكامل استمرت تعبر عن نفسها عملياً بعد عودة فردريك إلى الغرب . من ذلك ما يرويه أبو المحاسن من أن فردريك أرسل إلى السلطان الكامل عام ١٢٣٣ عدة هدايا « فيها دب أبيض وشعره مثل شعر السبع ينزل البحر فيصعد بالسماك فيأكله ومعه أيضاً طاوس أبيض » (٣) .

وقد استمرت الصداقة قائمة بين فردريك الثانى وسلاطين مصر بعد وفاة الكامل . من ذلك ما أشارت إليه المراجع من أن الإمبراطور فردريك حرص على تحذير الصالح أيوب عندما علم بنية لويس التاسع ملك فرنسا بتوجيه الحملة الصليبية السابعة ضد مصر عام ١٢٤٩ . والغريب أن جميع المؤلفات العربية التى صدرت فى السنوات الأخيرة عند حروب لويس التاسع فى مصر والشرق اكتفت بالإشارة إلى ما رددته المراجع الأوربية من أن فردريك حذر الصالح نجم الدين أيوب من نية الملك الفرنسى فى مهاجمة مصر ، وخلصت جميع هذه المؤلفات من إشارة إلى ورود هذا التحذير فى مرجع من المراجع العربية المعاصرة . ويسرنى أن أشير إلى أننى عثرت أخيراً على نصوص صريحة فى بعض المراجع العربية المعاصرة تؤيد ماورد فى المراجع الأوربية من قيام الإمبراطور فردريك

Kantorowicz : Frederick the Second, p. 192.

(١)

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٨٣ .

بتحذير السلطان الصالح . ومن ذلك ما يقوله المقرئى بالحرف الواحد « ونزل (السلطان الصالح نجم أيوب) بقلعة دمشق ، فورد عليه رسول الإمبراطور ملك الفرنج الألمانية بجزيرة صقلية فى هيئة تاجر ، وأخبره سرّاً بأن بواشن الذى يقال له رواد فرنس (لويس التاسع) عازم على المسير إلى أرض مصر وأخذها ؛ فسار السلطان من دمشق وهو مريض فى محفة ونزل بأشتموم طناح فى المحرم سنة سبع وأربعين » (١) .

ومن الواضح أن هذا النص العربى يؤيد صحة الرواية التى وردت فى الوثائق اللاتينية الغربية من قيام فردريك بتحذير الصالح نجم الدين أيوب فعلاً مما يدل على استمرار الصلات الودية بين الإمبراطور فردريك الثانى وحكام الشرق العربى حتى وفاة ذلك الإمبراطور فى منتصف القرن الثالث عشر .

سمير عبد الفتاح عاشور

(١) المقرئى : المواظ والاعتبار ؛ ج ١ ص ٢١٩ (طبعة بولاق) كذلك ذكر سبط ابن الجوزى ما نصه « إذ كانت الأخبار تتواتر إلى الملك الصالح بحركة ريد افرنس من جهة الانبرور . ملك بلاد الانبردية وانبولية ، فإنه كان مصافياً للملك الكامل أبيه فكذلك له » . (المكتبة الصقلية ج ٣ ص ٥١٧) .

